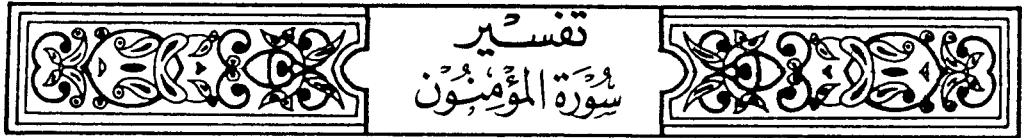


على هذه الأمة أنه بلغها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبَدِّلْ وَجْهَ اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ سُبْحَٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي اعتصموا بالله واستعينوا به، وتوكلوا عليه وتأيدوا به ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي حافظكم وناصركم، ومظفركم على أعدائكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

في مسند الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة، ورفع يديه وقال «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، ثم قال: «لقد أنزل علي عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر. و﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا أو سعدوا، وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون ساكنون، والخشوع خشوع القلب.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الباطل، وهو يشتمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ المراد ههنا زكاة الأموال، ويحتمل أن يكون المراد زكاة النفس من الشرك والدنس.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم من زنا ولواط.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي لا يقرّبون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، أو ما ملكت أيمانهم من السراي ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ولهذا قال ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

﴿فَمَنْ أَتَعَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

﴿فَمَنْ أَتَعَنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي المعتدون. وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» أخرجاه في الصحيحين. وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها. وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ «استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه العرش». وثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ «يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود

والنصارى» وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63] وكقوله: ﴿وَلَكُمْ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْفِئْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مبدأ خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ قال قتادة: استل آدم من الطين، فإن آدم خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: 7، 8] أي ضعيف، كما قال ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المرسلات: 20، 21] يعني: الرحم معد لذلك.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي ثم صيرنا النطفة، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل، وهو ظهره وترايب المرأة، وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة فصارت علقه حمراء على شكل العلقه مستطيلة، وهي دم ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وهي قطعة كالبلعضة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها، ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر، وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ عن علي بن أبي طالب قال: إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ الروح في ظلمات ثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني نفخنا فيه الروح.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾

يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾

يعني النشأة الآخرة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [الأنبياء: 20] يعني المعاد وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني السماوات السبع ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ فيعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو سبحانه لا تحجب عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وعده، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا أَلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْآرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٨﴾﴾

يذكر تعالى نعمه على عباده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى أن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزروعها، ولا تحتل دمتها إنزال المطر يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: الأرض الجرز، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها فيأتي الماء معه طين أحمر فيسقي أرض مصر، وقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباح، يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْآرْضِ﴾ أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له، وتشربه وتتغذى به ما فيها من الحب والنوى ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباح والبراري والقفار، ولو شئنا لجعلناه أجاباً، لا ينتفع به لشرب، ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل ينجر على وجهها، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلفظه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فرائاً زلاً لا فيسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، ويسقي به الزروع والثمار تشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه، وتطهرون منه، وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكَّةٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق، فيها نخيل وأعنان ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَكَّةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي من جميع الثمار ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعني الزيتون، والطور هو الجبل، وطور سيناء هو طور سينين، وهو

الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون. ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ قال بعضهم الباء زائدة أي تنبت الدهن، أو على التضحية، أي تأتي بالدهن ﴿وَصَيَّغَ﴾ أي أدم ﴿لِلْأَكْلَيْنِ﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدهن والأصباغ. روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة».

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تَشَافِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(٢١)
وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلَاكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً...﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه من الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملاتها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويحملونها الأحمال الثقيل إلى البلاد النائية عنهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةٌ فَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٢٣)

يخبر تعالى عن نوح ﷺ حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به، وخالف أمره، وكذب رسله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به؟

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾^(٢٤)

فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون يترفع عليكم ويتعظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحى إليه دونكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لو أراد أن يبعث نبيه لبعث ملكاً من عنده، ولم يكن بشراً، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ أي ببعثة البشر في آبائنا الأولين، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَاصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾^(٢٥)

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فترَاصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي انتظروا به رب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾^(٢٦)

يخبر تعالى عن نوح ﷺ أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانصُرْ﴾ [الفر: 10] وقال ههنا ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فعند ذلك أمره الله بصنع السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي ذكرًا وأنثى، من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي من سبق عليه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته، ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي عند معاناة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رافة بقومك، وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم، لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما عليه من الكفر والطغيان.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ﴾ كما قال ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٢٧﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزخرف: 12-14] ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي إن في هذا الصنيع، وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين آيات، أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وإنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: 41].

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْآخِرَةُ وَاتَّزَقْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾

فأرسل الله فيهم رسولاً منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه، وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم.

﴿وَلَمَّا أَطَاعَتْهُمُ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِذَا لِخَشِيرَتِكُمْ ﴿٣٤﴾﴾

فاستكفوا عن اتباع رسول بشري، وكذبوا بقاء الله في القيامة، وأنكروا المعاد الجسماني.

﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٢٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَةً ﴿٣٠﴾ فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

وقالوا ﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ أي بعد ذلك ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٢٩﴾ أي استفتح عليهم الرسول، واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَةً﴾ ﴿٣٠﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتكم به ﴿فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم. والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَاءً﴾ أي صرعى هلكى غشاء السيل، وهو الشيء الحقيقير التافه الهالك الذي لا يتنفع بشيء منه ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ أي أمماً وخلائق ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يعني بل يؤخذون على ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ، وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ يتبع بعضهم بعضاً. وقوله: ﴿كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أي أهلكتناهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي أخباراً وأحاديث للناس كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْفَعَةً كُلِّ مُزَفِّيٍّ﴾ [سبا: 19].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿فَقَالُوا أَأُتَوْنَ لِلْبَشَرَيْنِ مِثْلًا وَلَقَوْمُهُمَا لَنَا عَدِيدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى ﷺ وأخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وإن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله

فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب، وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقيط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 43].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٥٠)

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ الماء الجاري. هل هذه الربوة بمصر، أو دمشق، أو الرملة من فلسطين؟ أقوال للعلماء.

﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٢) ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٥٤) ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسِّدُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾ (٥٥) ﴿شَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦) يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء ﷺ بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً. فجزاهم الله عن العباد خيراً ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني الحلال. . . وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين» فقال ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) وقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمد يديه إلى السماء، يا رب يا رب، فأنى يستجاب لذلك؟ وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة. وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال، لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال مهدداً لهم ومتوعداً ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى حين حينهم وهلاكهم. وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُسِّدُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾ (٥٥) ﴿شَارِعَ لَهُمْ فِي

لَخَبَرَتْ بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ يعني أيقظ هؤلاء المغرورون أن ما نعطيههم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا، ومعزتهم عندنا؟ كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: 35] لقد أخطأوا في ذلك، وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء، ولهذا قال ﴿بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

أي هم مع إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَشَاءُ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٨﴾

أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ لَا يَشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

أي لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه، ويعلمون أنه لا إله إلا الله، أحد صمد، لم يتخذ ولداً، وأنه لا نظير له، ولا كفاء له.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا

سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا...﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط. روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة: هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: لا، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل. رواه الترمذي.

﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي إلا ما تطيق حمله، والقيام به وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور، لا يضيع منه شيء، ولهذا قال ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعني كتاب الأعمال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

﴿بَلَّ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ ﴿٦٣﴾

ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش ﴿بَلَّ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ﴾ أي في غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَذَا﴾ أي القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ. وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ﴾ أي سيئة ﴿مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ يعني الشرك

﴿هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ لا بد أن يعملوها . وقال آخرون ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ . . .﴾ أي قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحقق عليهم كلمة العذاب . وفي الحديث «فوالذي لا إله إلا غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» .

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ﴾ (١٤)

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم ، «وهم المنعمون في الدنيا» عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ﴾ أي يصرخون ويستغيثون .

﴿لَا تَخْشَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُنَّا مُتَصَرِّفِينَ﴾ (١٥)

﴿لَا تَخْشَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُنَّا مُتَصَرِّفِينَ﴾ أي لا يجبركم أحد مما حل بكم، سواء جأركم، أو سكتكم، لا محيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب .

﴿فَكَانَتْ عَائِيتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكَصُونَ﴾ (١٦)

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال ﴿فَكَانَتْ عَائِيتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكَصُونَ﴾ (١٦) أي إذا دعيتم أبيتم، وإن طلبتم امتنعتم .

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ (١٧)

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله ﴿سَامِرًا﴾ يتكبرون ويسمرون فيه، ولا يعمرونه ويهجرونه .

﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٨)

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له، وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل على رسول أكمل منه، ولا أشرف، لا سيما آبائهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنهم . ﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ﴾ إذا والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله، لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابهه فهنكوا عند ذلك .

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾ (١٩)

ثم قال منكرًا على الكافرين من قريش ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ﴾ (١٩) أي أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانيته التي نشأ بها فيهم؟ أفقدرون على إنكار ذلك والمباهة فيه؟ .

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يحكي قول قريش عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن، أي افتراه من عنده، أو أن به جنونا، ولا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا، ولا يستطيعون أبد الأبد، ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ جملة مستأنفة أو حالية.

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَلَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ...﴾ والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي لفساد أهوائهم، واختلافها ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ أي القرآن ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّافِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿خَرْجًا﴾ أجراً، أو جعلاً ﴿فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ﴾ أي أنت لا تسألهم أجره ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه.

﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَكِبُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿لَنَكِبُونَ﴾ أي لعادلون حاشرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ...﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له، ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم. فما استكانوا: أي ما خشعوا ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ أي ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: 43].

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (٧٧)

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا...﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله، وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك ألبسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم. كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩)

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانته القاهر في برئه الخليقة، وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً ولا ذكراً ولا أنثى ولا جليلاً ولا حقيراً إلا أعاده كما بدأه، ولهذا قال:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨٠)

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي يحيي الرمم، ويميت الأمم ﴿وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ أي وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد فهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢)

ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢) يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَاكِوْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٣)

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَاكِوْنَا هَذَا﴾ يعنون: الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤)

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي من مالكةا الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥)

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦)

أي من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي الكبير.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ (٨٧)

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه، وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨)

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي بيده الملك ﴿مَنْ دَاوَبَّ إِلَّا هُوَ أَخِذْ يُنَاصِبُهَا﴾ [هود: 56] أي متصرف فيها ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره. وليس لمن دونه أن يجير عليه، لثلا يفتات عليه ولهذا قال تعالى وهو يجير ولا يجار عليه أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والأمر. ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠)

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم بذلك ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على

ذلك ﴿وَلَهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22].

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١)

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة فقال ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ﴾ أي لو قدر الآلهة لانفرد بما خلق، فما كان يتنظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط ببعضه ببعض في غاية الكمال ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: 3] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩٢)

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تقدس وتنزه وتعالى عز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون.

﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤)

يقول تعالى أمراً بنبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم، كما جاء في الحديث «وإذا أردت بقوم فتنه فتوفني إليك غير مفتون».

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ (٩٥)

أي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن.

﴿أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦)

ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ وهذا كما قال في الآية الأخرى ﴿أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤١) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٢٤٥) [نصفت: 34، 35].

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨) ﴿

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) أمره الله أن يستعذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا يتقادون بالمعروف، وقد كان النبي يقول «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨) أي في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٠٠) ﴿

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ كلا حرف ردع وزجر، أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه. وقوله تعالى: ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، أو إذا قال الكافر ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ يقول الله تعالى: كلا كذبت، وقوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾ يعني أماتهم. ﴿بَرْزَخٌ﴾ البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث «فلا يزال معذباً فيها» وفي هذا تهديد لهؤلاء المحتضرين.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) ﴿

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة الشور، وقام الناس من القبور ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثي والد لولده، ولا يلوي عليه.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) ﴿

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين فازوا فنجوا من النار، وأدخلوا الجنة.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣) ﴿

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي خابوا وهلكوا، وباؤوا بالصفقة الخاسرة ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي ماكثون فيها، دائمون مقيمون، فلا يظعنون.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٤) ﴿

﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتَقْنَنُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: 50] تلفحهم لفحة تسيل

لحومهم على أعقابهم ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ في الحديث «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرتة» رواه الترمذي والإمام أحمد.

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنَ الَّذِينَ تَدْعُونَ لِكُفْرٍ فَمَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١١٥﴾

هذا تقرير من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنَ الَّذِينَ تَدْعُونَ لِكُفْرٍ فَمَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ أي قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿١١٦﴾

أي قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن نقاد لها ونتبعها فضلنا عنها ولم نرزقها.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١١٧﴾

أي رُدُّنا إلى الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غانر: 11].

﴿قَالَ أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾ ﴿١١٨﴾

هذا جواب من الله للكفار إذا سألوا الخروج من النار، والرجعة إلى هذه الدار يقول ﴿أَحْسِنُوا فِيهَا﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾ أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي.

﴿إِنَّمَا كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١١٩﴾

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه فقال ﴿إِنَّمَا كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١١٩﴾.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ حَتَّىٰ أَسْأَلْتُمُوهُمُ دَعْوَاهُمْ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ﴾ أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وعبادتهم ﴿حَتَّىٰ أَسْأَلْتُمُوهُمُ دَعْوَاهُمْ﴾ أي حملكم بغضهم على أن نسيت معاملتي ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي من صنيعهم وعبادتهم.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِرُونَ﴾ ﴿١٢١﴾

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي على أذاكم لهم واستهزائكم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِرُونَ﴾ أي جعلتهم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار.

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، لو صبروا في مدة الدنيا لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا؟

﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ﴾

﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ﴾ أي الحاسبين.

﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء، ولا استحققتكم من الله سخطة في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ﴾

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي أفظنتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة مثلاً ولا حكمة لنا، وقيل: للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا، كما خلقت البهائم، ولا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة، وإقامة أوامر الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة.

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أي حسن المنظر، بهي الشكل.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الْكَافِرُونَ﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له، أي لا دليل له على قوله: فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَأِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي الله يحاسبه على ذلك. ثم أخبر ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم، ولا نجاة.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق معناه غفر الذنب، وستره عن الناس. والرحمة معناها أن يسدده، ويوفقه في الأقوال والأعمال.